التَّوْبَةُ فِي ضَوْءِ القُرْآنِ الكَرِيمِ
دِراسَةٌ مَوضُوعِيَّةٌ

إِعْدادُ:

د. زينب بنت عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر

الأستاذ المساعد بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة طيبة بالمدينة النبوية

المقدمة

الحمدُ لله الكريم الوهَّاب، الرحيم التَّوَّاب، غافرِ الذنبِ وقابلِ التَّوبِ شديدِ العقاب، يحب التَّوابين والمتطهِّرين، ويغفر للمنيبين والمستغفرين، ويُقيل عثرات العاثرين، ويقبل اعتذار المعتذرين؛ فله الحمد– سبحانه– كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

والصَّلاة والسَّلام على البشير النَّذير، والسِّراج المنير، إمام التَّائبين، وسيِّدِ المستغفرين، وقائد الغر المحجلين، القائل: «يا أيها النَّاس توبوا إلى الله واستغفروه فإنِّي أتوب في اليوم مائةَ مرة»[(١)] مع إخبار الله له أنَّه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر[(٢)]، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن نهجَ نهجَهُ، واستنَّ بسنته، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ.

فإنَّ الأمة الإسلاميَّة لما كانت متمسِّكة بكتاب ربِّها، عاملةً بسنَّة نبيِّها ﷺ، صحيحةً عقائدُها، صالحةً أعمالُها، حسنةً معاملاتُها وعاداتُها، كريمةً أخلاقُها، كانت بذلك جليلةً مهيبةً، عزيزةَ الجانبِ قويَّةَ الشَّوكة، صاحبةَ العزِّ والسُّلطان والصَّولة والجولة.

ولما تغيَّر أمرها، وتبدَّل حالها، وتنكب كثير من أفرادها ذلك الطَّريق السَّوي، والصِّراط المستقيم، الذي أرشدهم إليه نبيُّهم، ودلَّهم عليه قائدهم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب الذِّكر، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، برقم (٦٨٥٨) ص: ١١٧٤.

(٢) الفتح/ ٢.

وإمامهم وموجههم محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[1]؛ صارت بسبب ذلك ضعيفةَ الشَّوكة، فاقدةَ الهيبة، مغلوبةً على أمرها، يتخطَّفها الأعداء من حولها ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2].

صح عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله[3]، ونقل عن مالك بن أنس رحمه الله أنه قال: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[4].

فلا خلاصَ للأمة من هذا الشَّقاء، ولا نجاةَ لها من هذا البلاء، إلا بصلاح القلوب، واستقامة الأعمال، وذلك بالتَّوبة والإنابة والرُّجوع إلى العمل بأوامر الدِّين، وإحياء سنة سيد المرسلين.

ومن هنا نشأت عندي الرغبة في دراسة هذا الموضوع دراسةً موضوعيَّةً من خلال القرآن الكريم؛ وذلك لأهميته:

۞ أسباب اختيار الموضوع:

١) من النَّاحية الدينيَّة: حيث نرى الغافلين من أبناء المسلمين اليومَ ينغمسون في أوحال المعاصي والذُّنوب، حتى وصل بهم الأمر إلى المخالفة في أمور العقيدة، كالغلوِّ في الصَّالحين، والاحتفال بأعياد غير المسلمين. . . . إلخ.

---

(١) الشورى/ ٥٢.

(٢) العنكبوت/ ٤٠.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، بابٌ وأما حديث سمرة بن جندب برقم (٢٠٧) ١/١٣٠. وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) ذكره القاضي عياض في الشفا (٢/٢٠٥).

٢) من النَّاحية الخُلقيَّة: حيث يؤلِم الغيورَ تفشي الفسادِ الخُلقي في كثير من المجتمعات الإسلاميَّة، واستمراء كثير من المنتسبين للإسلام لأخلاق ذميمة وتسميتها بغير أسمائها وما ذاك إلا بسبب البُعد عن الدين وتنكب الصِّراط المستقيم.

٣) من النَّاحية السِّياسيَّة: حيث تعاني الأمة الإسلاميَّة تسلُّط الأعداء عليها، واستنزاف ثرواتها وخيراتها، وما ذاك إلا بسبب انتشار الفساد والبعد عن الدين، وتلك سنَّة الله في خلقه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[1].

٤) من النَّاحية الاقتصاديَّة: حيثُ يفاجئ المطلعَ نَهَمُ كثير من أرباب الأموال من المنتسبين إلى الإسلام، وحرصهم على إشباع نهمهم من المال بكلِّ وسيلة متاحة، حلالًا كانت أم حرامًا.

فما أحوجَ المسلمين إلى معالجة الخلل، وإصلاح الفساد في جميع هذه النَّواحي بالمبادرة إلى التَّوبة والإنابة، والرجوع إلى الله تعالى! !

لهذه الأسباب وغيرِها؛ عقدت العزم مستعينةً بالله– تعالى– على جمع الآيات المتعلقة بالتَّوبة في ثنايا سور القرآن الكريم، ودراستها دراسة موضوعيَّة.

۞ الدِّراسَات السَّابقة:

من الأبحاث العلميَّة الَّتي تناولت موضوع التَّوبة في القرآن:

١– بحث بعنوان: "التَّوبة في ضوء القرآن"، أعدته الباحثة آمال صالح

(١) الأعراف/ ٩٦.

سالم نصير، لنيل درجة الماجستير من كليَّة التَّربية بجدة سنة ١٤١٠هـ، فسَّرت فيه آيات التَّوبة تفسيرًا فقهيًّا، ولم تستوعب جميع الآيات المتعلِّقة بالموضوع.

٢- بحث بعنوان: "التَّوبة أصولها وخصائصها وآثارها في ضوء القرآن الكريم دراسة موضوعيَّة"، أعدَّه الباحث مروان أحمد حمدان، لنيل درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى بمكة سنة ١٤١٤هـ، اقتصر فيه على جوانب الموضوع المذكورة في العنوان.

٣- بحث بعنوان: "التَّوبة في ضوء الكتاب والسُّنة"، أعدته الباحثة كفاية عبد الرحمن الكندري، لنيل درجة الماجستير من جامعة الكويت سنة ١٩٩٩م، وكما هو ظاهر في العنوان لم تقتصر فيه على تناول الموضوع من خلال القرآن الكريم.

٤- بحث بعنوان: "آيات التَّوبة في القرآن الكريم دراسة موضوعيَّة"، أعدته الباحثة ظلال مازن الحمداني، لنيل درجة الماجستير من الجامعة المستنصريَّة ببغداد سنة ٢٠٠٩م، لم تستوعب في دراستها جميع جوانب الموضوع، ولم تقتصر على تناول الموضوع من خلال القرآن، بل استطردت، وأفردت بعض المباحث في جوانب للموضوع، وردت في السُّنة والآثار، ولم يتطرَّق لها القرآن.

٥- بحث بعنوان: "آيات التَّوبة في القرآن الكريم دراسة موضوعيَّة"، أعده الباحث سفري محمد زين، لنيل درجة الماجستير من جامعة المدينة العالميَّة بماليزيا سنة ٢٠١١م، تناول فيه بعد التَّمهيد دراسة تحليليَّة لآيات التَّوبة في القرآن.

هذا ما تيسَّر لي الوقوف عليه من دراسات سابقة حول الموضوع، وهي كما هو ملاحظ من عرض محتواها لم تتناول دراسة هذا الموضوع دراسة موضوعيَّة من خلال القرآن الكريم؛ بل جاءت موسعة تتناول هذا الموضوع من خلال الكتاب والسُّنة، أو مختصَرة مقتصِرة على بعض جوانبه فقط، أو تتناول تفسيرًا تحليليًّا أو فقهيًّا لآياته. وأحسب أن الموضوع لا زال بحاجة إلى كتابة علميَّة ودراسة موضوعيَّة مستقصية جميع جوانبه، من خلال نصوص القرآن الكريم، وسبر أغواره، وتتبُّع آياتِه آيةً آيةً لتُبيِّن كيف ناقش القرآن هذا الموضوع؟ وما الجوانب الَّتي سلَّط عليها الضوء في آياته؟. . وقد بذلت وسْعي لإبراز ذلك من خلال هذا البحث.

۞ هدف البحث:

دراسة الآيات المتعلقة بموضوع التَّوبة دراسةً موضوعيَّةً، وفق المنهج العلمي المتَّبع في التَّفسير الموضوعي.

۞ خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة وتمهيد وستة فصول وخاتمة:

المقدمة: وتشمل:

أسباب اختيار الموضوع.

الدِّراسَات السَّابقة.

هدف البحث.

خطة البحث.

منهج البحث.

تمهيد: في تعريف التَّوبة، وإطلاقاتها في القرآن، والفرق بينها وبين الإنابة، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف التَّوبة لغةً واصطلاحًا.

المبحث الثَّاني: إطلاقات الكلمة في القرآن الكريم.

المبحث الثَّالث: الفرق بين التَّوبة والإنابة.

الفصل الأول: الأمر بالتَّوبة: وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الأمر بالتَّوبة النَّصوح.

المبحث الثَّاني: ضرورة المبادرة إلى التَّوبة وملازمتها.

المبحث الثالث: الإنكار على من لم يتب وتهديده.

المبحث الرابع: نماذج من دعوة الأنبياء– عليهم السَّلام– أقوامَهم إلى التَّوبة: وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: دعوة نبي الله هود– عليه السَّلام– قومه إلى التَّوبة.

المطلب الثَّاني: دعوة نبي الله صالح– عليه السَّلام– قومه إلى التَّوبة.

المطلب الثَّالث: دعوة نبي الله شعيب– عليه السَّلام– قومه إلى التَّوبة.

الفصل الثَّاني: شروط التَّوبة في القرآن الكريم: وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: الإخلاص لله تعالى.

المبحث الثَّاني: الانتهاء عن الذنب.

المبحث الثَّالث: الاستغفار من الذنب.

المبحث الرابع: الإصلاح بعد التَّوبة.

الفصل الثَّالث: قبول الله– تعالى– لتوبة عباده: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: معنى الاسم الكريم (التَّواب) .

المبحث الثَّاني: أقسام توبة الله على عباده: وفيه مطلبان:

المطلب الأول: توبة الله– تعالى– على العبد قبل التَّوبة.

المطلب الثَّاني: توبة الله– تعالى– على العبد بعد التَّوبة.

الفصل الرابع: نماذج من توبة الأنبياء والصَّالحين: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: نموذج من توبة الأنبياء (توبة آدم عليه السَّلام) .

المبحث الثَّاني: نموذج من توبة الصَّالحين (توبة الثَّلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك) .

الفصل الخامس: وقت التَّوبة: وفيه مبحثان:

المبحث الأول: وقتها باعتبار كل إنسان بحسبه.

المبحث الثَّاني: وقتها باعتبار العموم.

الفصل السَّادس: ثمار التَّوبة، وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: تكفير الذنوب.

المبحث الثَّاني: تبديل السَّيئات بالحسنات.

المبحث الثَّالث: الفلاح.

المبحث الرَّابع: الحياة الطَّيبة.

المبحث الخامس: تسخير بركات السَّماء والأرض.

المبحث السَّادس: محبَّة الله عزَّ وجلَّ.

المبحث السَّابع: دخول الجنة.

الخاتمة: وتشمل أهم نتائج البحث.

۞ منهج البحث:

المنهج المتَّبع في هذا البحث كالتَّالي:

١- التَّمهيد لهذا الموضوع بذكر معنى التَّوبة في اللغة والاصطلاح، وإطلاقات الكلمة في القرآن الكريم، والفرق بين التَّوبة والإنابة.

٢- جمع الآيات القرآنيَّة الَّتي تتناول موضوع التَّوبة في القرآن الكريم.

٣- دراسة تفسير هذه الآيات دراسة وافية، بالرجوع إلى كتب التَّفسير، وتمييز المكيِّ منها من المدنيِّ، ومعرفة أسباب نزولها، والنَّاسخ منها والمنسوخ. . .

٤- استنباط العناصر الأساسيَّة للموضوع، من خلال الآيات الكريمة، ثم تقسيمه إلى ستة فصول، واختيار عناوين لها من المادة القرآنيَّة.

٥- تصنيف الآيات الَّتي تمَّ جمعُها وفق عناصر الموضوع، وتوزيعها على الفصول، والمباحث، والمطالب.

٦- عرض الموضوع عن طريق بيان معنى الآيات المستقى من كتب التَّفسير، وغريب القرآن، وأسباب النُّزول، وأحكام القرآن. . .

٧- عزو الآيات المستشهَد بها إلى سورها مع بيان رقم الآية واسم السورة.

٨- تخريج الأحاديث المستشهد بها، والحكم على ما لم يرد في الصَّحيحين منها بذكر أقوال النقاد المعتبرين.

٩- عزو الآثار والأقوال التَّفسيريَّة إلى قائليها، مع ذكر رقم الجزء والصَّفحة.

١٠– التَّرجمة للأعلام الوارد ذكرُهم في هذا البحث.

١١– شرح المفردات الغريبة، بالرجوع إلى معاجم اللغة العربيَّة، وكتب غريب القرآن، وكتب غريب الحديث.

١٢– التَّعريف بالأماكن والقبائل بإيجاز مفيد.

١٣– تلخيص نتائج البحث في خاتمته.

١٤– تذييل البحث بفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

هذا، والله –تعالى– أسأل أن ينفع بهذا البحث الكاتب والقارئ، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، إنه خير مسؤول، وأعظم مأمول. وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنَا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلَّم.

التَّمهيد:

تعريفُ التَّوبة وإطلاقاتُها في القرآن، والفرق بينها وبين الإنابة

المبحث الأول: تعريف التَّوبة:

التَّوبة في اللغة: الرجوع، وتاب العبد إلى ربِّه، أي: رجع عن المعصيَّة إلى الطَّاعة، وتاب الله عليه، أي: رجع عليه بالمغفرة والقبول بعد توفيقه للتوبة.

والوصف منه تائب، ويقال لباذل التَّوبة وقابلها، فالعبد تائب إلى الله، والله تائب على عبده.

والمبالغة منه تـوَّاب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1].

والتَّوَّاب: العبد كثير التَّوبة، وذلك بتركِه كلَّ وقت بعض الذنوب على التَّرتيب حتى يصير تاركًا لجميعه.

والتَّوَّاب: اسم من أسماء الله تعالى[2]، ولا يطلق عليه- سبحانه- اسم التَّائب، وإن صرح بفعله مسندًا إليه تعالى.

فإذا أسند فعلها إلى العبد تعدَّى بإلى على الأصل، وإذا أسند إلى الله- تعالى- تعدَّى بعلى لتضمينه معنى عطف ورضي، فاختلف مفادا هذا الفعل باختلاف الحرف الذي يتعدَّى به[3].

---

(١) البقرة/ ٢٢٢.

(٢) وسيأتي بيان معناه ص: (٣٣)

(٣) الصحاح ١٤٢/١ مادة (توب)، ومقاييس اللغة ١٨٤/١ مادة (توب)، والمفردات ص: =

والتَّوبة في الاصطلاح:

قال الراغب[١]: التَّوبة في الشَّرع ترك الذَّنب لقبحه، والنَّدم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكن أن يُتدارَك من الأعمال بالإعادة[٢].

وقال الجرجاني[٣]: التَّوبة هي الرجوع إلى الله بحلِّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الربِّ.

وقيل: التَّوبة في الشَّرع: النَّدم على معصيته من حيث هي معصية، مع عزم ألَّا يعود إليها إذا قدر عليها.

وقُيِّد بـ (على معصيته) ؛ لأن النَّدم على المباح أو الطَّاعة لا يسمى

= (٨٦) مادة (توب)، ولسان العرب ٢٣٣/١ مادة (توب)، والدر المصون ١٩٦/١، والقاموس المحيط ٥٢/١ مادة (توب).

(١) هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني، المعروف بالراغب، من أهل أصبهان، سكن بغداد، وبها توفي سنة ٥٠٢هـ، من مؤلفاته: محاضرات الأدباء، والمفردات في غريب القرآن، وأفانين البلاغة.

ينظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة للفيروزابادي ص: (١٢٢)، وبغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ٢٩٧/٢.

(٢) المفردات ص: (٨٦) مادة (توب).

(٣) هو علي بن محمد الحسيني، أبو الحسن الجرجاني، يعرف بالسيد الشريف، ولد بجرجان، وتوفي بشيراز سنة ٨١٦هـ، من مؤلفاته: حاشية على تفسير البيضاوي، والتَّعريفات، وحاشية على الكشاف.

ينظر: بغية الوعاة ١٩٦/٢، وطبقات المفسرين للداودي ٤٣٢/١.

توبة.

وقُيِّد بـ (من حيث هي معصية) ؛ لأن النَّادم على الذَّنب؛ لكونه ضارًا بالمال أو بالعقل أو بالعرض أو بالبدن لا يكون تائبًا شرعًا.

وقُيِّد بـ (مع عزم ألا يعود إليها) لزيادة التَّقرير؛ لأن النَّدم على الشَّيء لا يكون إلا كذلك؛ ولذلك ورد في الحديث: «النَّدم توبة»[1].

وقُيد بـ (إذا قدر عليها) ؛ لأن مَن سُلِب القدرة على معصية، وانقطع طمعه عن عودة القدرة إليه، لم يكن ذلك توبةً منه[2].

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن مسعود برقم (٣٥٦٨) ٤٨٩/٣، وصححه أحمد شاكر، وأخرجه ابن ماجه في سننه كتاب الزهد، باب ذكر التَّوبة برقم (٤٢٥٢) ص: (٧٠٤)، وصححه الألباني. وأخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التَّوبة والإنابة، باب العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه برقم (٧٦١٢) ٢٧١/٤. وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) المفردات ص: (٨٦) مادة (توب)، والتَّعريفات للجرجاني ص: (٧٠)، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوي ٥٢٤/١.

المبحث الثَّاني: إطلاقات التَّوبة في القرآن الكريم:

وردت كلمة التَّوبة في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه:

١) بمعنى التَّجاوز والعفو، إذا عُدِّي الفعل بعلى، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾[١].

٢) بمعنى الرجوع، والإنابة، إذا عُدِّي الفعل بإلى، كقوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

٣) بمعنى النَّدامة، إذا جاء لازمًا ولم يتعدَّ، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٣][٤].

المبحث الثَّالث: الفرق بين التَّوبة والإنابة:

قيل في الفرق بينهما: أن التَّوبة لمن خَشِي العقاب، والإنابة لمن طمع في الثَّواب. وقيل: التَّوبة صفة عامَّة للمؤمنين ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥]، والإنابة صفة الأولياء والمقربين: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[٦][٧].

---

(١) البقرة/ ١٨٧.

(٢) النور/ ٣١.

(٣) التَّوبة/ ٣.

(٤) ينظر: بصائر ذوي التَّميز للفيروزابادي ٣٠٨/٢، ونظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ١٢٧١/٤.

(٥) النور/ ٣١.

(٦) ق/ ٣٣.

(٧) ينظر: معجم الفروق اللغويَّة لأبي هلال العسكري ص: (١٤٦)، ومدارج السالكين ٤٣٣/١ =

الفصل الأول: الأمر بالتَّوبة

تضافرت نصوص القرآن الكريم في الحث على التَّوبة، والتَّحضيض على المبادرة إليها فور اقتراف الذنب، وتنوعت أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى ذلك باستخدام أسلوب التَّرغيب في الثَّواب تارة، وأسلوب التَّحذير من العقاب تارة أخرى.

المبحث الأول: الأمر بالتَّوبة النَّصوح:

التَّوبة واجبة من كل ذنب اقترفه الإنسان، وقد تضافرت الأدلة من كتاب الله– تعالى– في الأمر بالتَّوبة والحثِّ على المبادرة إليها، والحرص على إيقاعها على أكمل الوجوه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾[1].

وأصل مادة: (نصح) لخلاص الشَّيء من الغشِّ والشَّوائب الغريبة، والنُّصحُ في التَّوبة تخليصها من كلِّ غشٍّ ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه[2].

و(فعول) تستعمل للمبالغة في الوصف، أي: توبة بالغة في النُّصح[3].

وقد اختلفت عبارات السَّلف في المراد بالتَّوبة النَّصوح حتى أنهاها القرطبيُّ[4] إلى ثلاثة وعشرين .....

= وما بعدها، ونظرة النعيم ٤/١٢٧٠.

(١) التَّحريم/ ٨.

(٢) الصحاح ١/٦٠٤ مادة (نصح)، ومقاييس اللغة ٢/٥٦٢ مادة (نصح).

(٣) زاد المسير ٤/٣١٠، والدر المصون ٦/٣٣٧.

(٤) هو محمد بن أحمد الأنصاري، أبو عبد الله القرطبي، إمام متفنِّن متبحِّر في العلم، من مؤلفاته: =

قولًا[١].

وأجمع الأقوال في معناها: أنها التَّوبة الَّتي استوفت شروطها بأن يقلع عن الذَّنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل[٢].

فهي توبةٌ ناصحةٌ، ومنصوحٌ فيها:

ناصحةٌ؛ لأنها تنصح صاحبها بترك العَود إلى الذَّنب الذي تاب منه، والنَّدم على ما بدر منه.

ومنصوحٌ فيها؛ لأنه قد صدق فيها صاحبُها وأخلصَ، فلم يشُبْها بغشٍّ[٣].

وقد جاء الأمر بها مسبوقًا بندائهم بوصف الإيمان تهييجًا لهم، وحثًا على امتثال الأمر؛ لأنَّ الاتِّصاف بوصف الإيمان بالمعنى الصَّحيح يقتضي المسارعة إلى امتثال أمر الله واجتناب نهيه[٤].

= التَّفسير، وشرح الأسماء الحسنى، والتَّذكرة في أحوال الموتى والآخرة، توفي سنة ٦٧١هـ. ينظر: تاريخ الإسلام للذهبي ٢٢٩/١٥، وطبقات المفسرين للسُّيوطيِّ ص: (٩٢).

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٨٩/١٨، وقال أبو حيان: ذكروا فيها أربعةً وعشرين قولًا. البحر المحيط ٢٨٨/٨.

(٢) وهذا هو قول الحسن البصري، ومحمد بن كعب القرظي، والكلبي.
انظر: زاد المسير ٣١١/٤، وتفسير القرطبي ١٨٩/١٨، وتفسير الخازن ٣١٦/٤.

(٣) تفسير الخازن ٣١٦/٤، ومدارج السالكين ٣١٠/١.

(٤) أضواء البيان ١٤٠/٦، والتَّحرير والتَّنوير ٣٦٧/٢٨.

المبحث الثَّاني: ضرورة المبادرة إلى التَّوبة وملازمتها:

وتجب المبادرة إلى التَّوبة من الذنب على الفور، ولا يجوز تأخيرُها، فمتى أخَّرها عصى بالتَّأخير، وإذا تاب من الذَّنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التَّوبة[1].

ويدلُّ على وجوب المبادرة إلى التَّوبة فور وقوع الذنب قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴾[2].

أي: يتوبون بعد الذَّنب بزمانٍ قريبٍ لئلا يُعدُّون في زمرة المصرين.

ويدلُّ على هذا مجيء هذه الجملة عقبَ ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ أي: بسفاهة، وإيثار للَّذة الفانية على الباقية، والحظِّ العاجل على الآجل[3].

يقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[4].

قال الحافظ ابن كثير[5]: أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله- عزَّ

(١) مدارج السالكين ١/٢٧٢.

(٢) النساء/ ١٧.

(٣) معاني الزجاج ٢/٢٩، والمحرر الوجيز ٢/٢٤، وروح المعاني ٢/٤٤٧، والتَّحرير والتَّنوير ٤/٢٧٨.

(٤) آل عمران/ ١٣٥.

(٥) هو: إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء الدمشقي، حافظ مؤرخ فقيه، ولد ببصرة، وانتقل إلى الشَّام، وبها كانت وفاته سنة ٧٧٤هـ، من مؤلفاته: البداية والنّهاية، والتَّفسير، والباعث الحثيث إلى معرفة علوم الحديث.
ينظر: الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر ١/٤٤٥، وطبقات المفسرين للداودي ١/١١١.

وجلَّ– عن قريب، ولم يستمروا على المعصية، ويصروا عليها غير مقلِعين عنها، ولو تكرَّر منهم الذَّنب تابوا منه[١].

ولهذا لما امتدح الله– تعالى– المؤمنين الذين قدَّموا أنفسهم وأموالهم ثمنًا للجنَّة، كانت أوَّل صفاتهم وعلاماتهم الملازمة للتوبة في جميع الأوقات من كل السَّيئات[٢]. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ﴾[٣].

وقد جعل الله محبته للتوَّابين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[٤]؛ لأنهم خواصُّ الخلق لديه[٥].

وقد كان إمام التَّائبين وسيِّدُ المستغفرين يتوب إلى الله في اليوم أكثر من مائة مرة[٦]، مع إخبار الله أنه قد غفر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر[٧].

ولهذا؛ فحريٌّ بالمسلم أن يحرص على ملازمة التَّوبة والاستغفار في كل وقت؛ لأن أعماله وإن كانت صوابًا إلا أنها مظنَّة التَّقصير، ولهذا لما ذكر الله–

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/١٢٥.

(٢) البحر المحيط ٥/١٠٦، وتفسير ابن سعدي ص: (٣١٠).

(٣) التَّوبة/ ١١١-١١٢.

(٤) البقرة/ ٢٢٢.

(٥) مدارج السالكين ١/٣٠٦.

(٦) في حديث أبي هريرة، وقد تقدَّم ص: (٢).

(٧) الفتح/ ٢.

تعالى- جملة من الآداب في سورة النُّور ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ ختم تلكم الآية بالأمر بالتَّوبة، فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]؛ لأنه قد يحصل التَّقصير من العباد في امتثال تلك الأوامر، فعلَّمهم- سبحانه- ما يتداركون به ذلك التَّقصير، وبيَّن لهم أن ذلك إنما يكون بالتَّوبة إلى الله، والاستغفار من الذنب[2].

(١) النور/ ٣١.

(٢) تفسير ابن سعدي ص: (٥١٦)، وأضواء البيان ١٣٨/٦.

المبحث الثَّالث: الإنكارُ على من لم يتب وتهديدُه:

أعظم التَّوبة وأوجبها: التَّوبة من الكفر إلى الإيمان، قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾(١).

ولما قالت النَّصارى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖ﴾(٢)، دعاهم إلى التَّوبة، وبيَّن لهم أنه يقبل التَّوبة من عباده، فقال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(٣).

ولما نصر الله رسوله والمؤمنين، وأذَلَّ المشركين يومَ فتح مكة(٤)، رغَّب المشركين بالتَّوبة ورهَّبهم من الاستمرار على الشِّرك، فقال: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ ﴾(٥).

والمنافقون لما قالوا: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ ﴾(٦)، استهزاءً بالدِّين وبالرسول ﷺ، قال: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴾(٧)، وهدَّدهم إنْ هم أصرُّوا على العِصيان، فقال: ﴿وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا ٧٣ ﴾، ووبَّخهم

(١) الأنفال/ ٣٨.

(٢) المائدة/ ٧٣.

(٣) المائدة/ ٧٤.

(٤) وكان ذلك في شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة. انظر: السيرة النبويَّة لابن هشام ٣٨٩/٢، والدرر في اختصار المغازي والسير لابن عبد البرِّ ص: (٢١١).

(٥) التَّوبة/ ٣.

(٦) المنافقون/ ٨.

(٧) التَّوبة/ ٧٤.

على إقامتهم على النِّفاق والكفر، فقال: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾[1].

ولما نهى- سبحانه- عن السُّخريَّة والتَّنابز بالألقاب في سورة الحجرات، توعَّد من لم يتبْ بأنه يكون في زُمرة الظالمين ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2]، لأنه ظلمٌ للناس بالاعتداء عليهم، وظلم للنفس بتعريضها لعقاب الآخرة.

قال ابن عاشور[3]: جيء له بصيغة القصر، كأنه لا ظالم غيرهم؛ لعدم الاعتداد بالظالمين الآخرين في مقابلة هؤلاء على سبيل المبالغة ليزدجروا[4].

(١) التَّوبة/ ١٢٦.

(٢) الحجرات/ ١١.

(٣) هو محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وبها كانت ولادته ودراسته ووفاته سنة ١٣٩٣هـ، من مؤلفاته: التَّحرير والتَّنوير، والوقف وآثاره في الإسلام، ومقاصد الشريعة الإسلاميَّة.

ينظر: الأعلام للزركلي ٦/١٧٤.

(٤) التَّحرير والتَّنوير ٢٦/٢٥٠.

المبحث الرابع: نماذج دعوة الأنبياء أقوامهم إلى التَّوبة:

لقد كان كلُّ نبي من الأنبياء يُبعث في قومِهِ لدعوتهم إلى عبادة الله وحدَهُ، وترك ما هم عليه من الوثنيَّة والتَّوبة إلى الله، والرجوع إليه، والإنابة ممَّا هم مقيمون عليه من الشِّرك والمعاصي.

وسأعرض في هذا المبحث ثلاثة نماذج من دعوتهم– عليهم السَّلام– أقوامَهم إلى التَّوبة وتحضيضهم عليها، وبيان ثمارها.

المطلب الأول: دعوة نبي الله هود- عليه السَّلام- قومه إلى التَّوبة:

لما أهلك الله– تعالى– المشركين من قوم نوحٍ، ونجَّى نبيَّه نوحًا والذين آمنوا معه، عاد النَّاس إلى عبادة الأصنام في قوم هود عليه السَّلام، فبعث الله فيهم نبيه هودًا عليه السَّلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وترك الأصنام، وحاول إقناعهم بالرجوع إلى طريق الحق، وذكرهم بنعم الله عليهم، مستخدمًا في دعوتهم القول اللين والخطاب الجميل، وأرشدهم إلى التَّوبة والاستغفار، فبسببها تهطل الأمطار المتتابعة، وتحصل الخيرات، ويزدادون قوةً إلى قوتهم، وعزًّا إلى عزِّهم ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[1].

لكنَّ عادًا[2] تمادوا في الضَّلال والباطل، وسخروا من نبيِّهم ووصفوه

(١) هود/ ٥٢.

(٢) قبيلة من العرب العاربة البائدة، ينتسبون إلى أبيهم، وقعت الإشارة إليهم في القرآن، ويقال لهؤلاء: عاد الأولى، وكانت منازلهم بالأحقاف بين عمان وحضرموت، كذبوا نبيهم هود عليه =

بالسَّفه والكذب، فلما أيس نبي الله هود منهم، دعا ربه ينقذ دينه، فأجاب الله دعوته وأرسل عليهم الريح العقيم، فأهلكهم وأبادهم، ونجَّى هودًا والذين آمنوا معه(١).

المطلب الثَّاني: دعوة نبي الله صالح- عليه السَّلام- قومه إلى التَّوبة:

ثم بعد إهلاك الله- تعالى- قوم هود، ظهرت عبادة الأصنام في ثمود(٢) **الَّتي كانت تسكن الحجر**(٣)**، فبعث الله- تعالى- فيهم نبيه صالحًا عليه السَّلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، وإلى أخذ العظة والعبرة مما أصاب قوم هود عليه السَّلام، وذكَّرهم بنعم الله عليهم؛ حيث جعلهم خلفاء من بعدهم، ومكنهم من الأرض.**

= السلام، فأهلكهم الله بالريح.

ينظر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب للقلقشندي ص: (٣٢٨).

(١) البداية والنهاية ١/١٢١، وروح المعاني ٦/٢٧٩.

(٢) قبيلة من العرب العاربة البائدة، اشتهرت باسم أبيهم، كانت منازلهم بالحجر بين الحجاز والشام، آثارهم باقية إلى زماننا هذا، كذبوا نبيهم صالحًا عليه السلام، فأهلكهم الله بالصيحة.

ينظر: نهاية الأرب ص: (٢٠٠).

(٣) الحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام، وما زال يعرف باسمه، ويبعد ٣٤٤ كيلا شمال المدينة المنورة.

ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/٢٢١، ومعجم المعالم الجغرافيَّة في السيرة النبويَّة لعاتق البلادي ص: (٩٣).

ووجههم إلى الاستغفار والتَّوبة؛ فهما سببٌ للخير والبركة والقوة: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[1]. إلَّا أنَّهم لم يستجيبوا لنصحه، واتهموه بالسِّحر، وطلبوا منه أن يخرج لهم من صخرة من الجبل ناقة تفنَّنوا في تحديد أوصافها، كمعجزة تدلُّ على صدق نبوته، فلمَّا أظهر الله– تعالى– تلك المعجزة العظيمة، أمرهم صالح– عليه السَّلام– ألا يمسُّوها بسوء، وأوعدهم بالعذاب إن اعتدوا عليها، لكن المستكبرين من الكفرة عقروا النَّاقة، فأمهلهم نبي الله صالح ثلاثةَ أيام، بعدها يحلُّ بهم عقاب الله، حيث أخذتهم الصَّيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين[2].

(١) هود/ ٦١.

(٢) البداية والنهاية ١/١٣٦، وروح المعاني ٦/٢٨٦.

المطلب الثَّالث: دعوة نبي الله شعيب قومه إلى التَّوبة:

كان أهل مدين[1] كفارًا يقطعون السَّبيل، ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة -وهي الشجر الملتف- وكانوا من أسوأ النَّاس معاملةً، يبخسون المكيال والميزان.

فبعث الله فيهم شعيبًا عليه السَّلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحدَهُ لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة، وخوَّفهم من أن يصيبهم عقاب الله تعالى، كما أصاب قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وعقَّب ذلك بالدعوة إلى الاستغفار والتَّوبة، والإقلاع عمَّا هم مقيمون عليه من عبادة الأيكة وبخسِ النَّاس أشياءهم، وإخافتهم السَّبيل. ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾[2].

فأنكر قومُه دعوته، ولم يرتدعوا عمَّا كانوا يفعلونه، وسخروا منه، فأنزل الله عليهم عقابه، حيث أخذتهم الصَّيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين[3].

(١) هي بلدة بين تبوك والساحل، على بعد ١٣٢ كيلا غرب، تُعرف اليوم باسم (البِدْع).
ينظر: معجم البلدان ٧٧/٥، والمعالم الجغرافيَّة ص: (٢٨٤).

(٢) هود/ ٩٠.

(٣) البداية والنهاية ١٨٥/١، وروح المعاني ٣١٧/٦.

الفصل الثَّاني: شروط التَّوبة

إذا ندم العبدُ على ما فرَّط منه من ذنب أو تقصير، ورغب في التَّوبة إلى الله عزَّ وجلَّ، فإنه يشترط لقبول توبته عدة شروط، وقد أشار القرآن الكريم إلى شيء من هذه الشُّروط، وهي:

المبحث الأول: الإخلاص لله تعالى

أول شرط من شروط التوبة التي أشار إليها القرآن الكريم الإخلاص لله تعالى، فلا تكون التوبة صحيحة مقبولة إلا إذا كان الباعث عليها الخوف من الله عز وجل والرغبة في ثوابه، أما إن كانت لغرض من أغراض الدنيا؛ كمراءاة الناس أو خوفًا من سلطان فإنها لا تقبل قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[1] قال ابن سعدي[2]: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ في سائر الشرائع ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه[3].

(١) البينة/٥.

(٢) عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي، أبو عبد الله التَّميمي، فقيه أصوليٌّ مفسِّر، توفي سنة ١٣٧١هـ. من مؤلفاته: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، والقواعد الحسان في تفسير القرآن، والقول السديد في شرح كتاب التَّوحيد.
ينظر: روضة الناظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السنين للقاضي ٢١٩/١، وعلماء نجد خلال ستة قرون للبسام ٤٢٢/٢.

(٣) تفسير ابن سعدي ص: (٨٦١).

المبحث الثاني: الانتهاء عن الذَّنب:

ثاني شروط التَّوبة الانتهاء عن الذنب، والإقلاع عنه، وعدم الإصرار على تعاطيه، ولهذا لما ذكر الله في سورة آل عمران جملة من صفات المتقين امتدحهم بالمبادرة إلى الانتهاء عن المعصية فور مقارفتها، وعدم الإصرار عليها، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

قال أبو السُّعود[2]: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تذكروا حقَّه العظيم وجلاله الموجب للخشية والحياء أو وعيده أو حكمه وعقابه، ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ بالتَّوبة والنَّدم، والفاء للدلالة على أن ذكره- تعالى- مستتبع للاستغفار لا محالة[3].

ثم أكَّد- سبحانه- مبادرتهم إلى التَّوبة بقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لم يستمروا على المعصية، ويثبتوا عليها، وهم يعلمون أنها معصية غير ساهين أو غافلين[4].

---

(١) آل عمران/ ١٣٥.

(٢) هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، ولد بـ (روسا) قرب القسطنطينيَّة، وأخذ عن أكابر علمائها، ودرس في مدارسها، وصار قاضيًا بها، برع في عدد من الفنون، من مؤلفاته: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، وتحفة الطلاب، توفي سنة ٩٨٢هـ. ينظر: طبقات المفسرين للأدنه وي ص: (٣٨٩)، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ٢٦١/١.

(٣) تفسير أبي السعود ٨٦/٢.

(٤) النكت والعيون ٤٢٥/١، المحرر الوجيز ٥١٠/١.

ولأهميَّة هذا الشَّرط في صحة التَّوبة وقبولها؛ جعله الله– تعالى– من علامات الإيمان الصَّادق، فقال– سبحانه– مخاطبًا من خاضَ في شأن عائشة رضي الله عنها: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[١].

قال البيضاوي[٢]: لأن الإيمان يمنع عنه، وفيه تهييج وتقريع[٣].

وقد توعَّدَ– سبحانه– من لم يقلع عن الذَّنب، واستمر على المعصية؛ مصرًا معاندًا بالنَّكال والعذاب، فقال في شأن مَنْ يقتل الصَّيد حال الإحرام: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[٤].

وقال في شأن مَنْ يتعاطى الربا: ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[٥].

وقال في شأن المنافقين الذين نُهوا عن النَّجوى فاستمرُّوا عليها، ولم يقلعوا عنها: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ

(١) النور/ ١٧.

(٢) هو عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي، أبو الخير البيضاوي، فقيه مفسِّر أصولي، ولي قضاء شيراز، توفي سنة ٦٨٥، ومن مؤلفاته: أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل، والمنهاج في الأصول، والغاية القصوى في الفقه.

ينظر: بغية الوعاة ٢/٥٠، وطبقات المفسرين للداودي ص: (٢٤٨).

(٣) أنوار التَّنزيل ٤/١٠١.

(٤) المائدة/ ٩٥.

(٥) البقرة/ ٢٧٥.

حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾[1].

وقد بيَّن- سبحانه- أن هذه سنَّة الله في خلقه الَّتي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر؛ فمن تاب وأقلع تاب الله عليه، ومن أصرَّ وكابر عرّض نفسه للعذاب والنَّكال، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴾[2].

وقال متوعِّدًا بني إسرائيل بعد أن ذكر خبر الإفسادتين: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴾[3].

(١) المجادلة/ ٨.

(٢) الأنفال/ ٣٨.

(٣) الإسراء/ ٨.

المبحث الثَّالث: الاستغفار من الذنب:

أمَّا ثالث شروط التَّوبة في القرآن الكريم فهو الإقرار بالمعصية، والاعتراف بها، والنَّدم عليها، والاستغفار منها، والسَّعي في التَّوبة منها، والتَّطهُّر من أدرانها.

قال تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[١].

فكان من أظهر علامات توبة هؤلاء[٢]، اعترافُهم بالخطيئة، والنَّدم عليها، والسَّعي إلى التَّطهُّر منها.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾[٣].

قال ابن سعدي: أي: معترفين بذنوبهم باخعين بها. ﴿فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمِهُم بقبول التَّوبة والتَّوفيق لها والثَّواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السِّياق يدلُّ على ذلك؛ لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأمَّا بعد موته فإنه لا يُطلب منه شيء، بل ذلك شرك[٤].

وقد أكد– سبحانه– على ضرورة الاستغفار من الذنب، والنَّدم عليه على الفور، فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ

(١) التَّوبة/ ١٠٢.

(٢) وهم من تخلف عن عزوة تبوك كما سيأتي ص: (٤١)

(٣) النساء/ ٦٤.

(٤) تفسير ابن سعدي ص: (١٤٩).

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1].

فمجيء الفاء الَّتي تفيد التَّعقيب يدلُّ على أن الإقلاع عن الذنب والاستغفار منه يكون على الفور عند التَّذكُّر كما مرَّ معنا في المبحث السَّابق.

(١) آل عمران/ ١٣٥.

المبحث الرابع: الإصلاح بعد التَّوبة:

ورابع شروط التَّوبة الَّتي نصَّ عليه القرآن الكريم الإصلاح بعد التَّوبة؛ فلا يكفي ترك المعصية؛ بل لا بدَّ أن يصاحب ذلك ما يؤكده ويثبته من ملازمة فعل الصَّالحات، وقد تضافرت النُّصوص من القرآن الكريم في الدلالة على ذلك:

فتارة تأتي الإشارة إلى ذلك باشتراط الإصلاح بعد التَّوبة، قال ابن سعدي: فلا بدَّ مع ترك الذُّنوب، والإقلاع، والنَّدم عليها، من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسدَ من الأعمال الظاهرة والباطنة(١).

وقد جاء هذا الشَّرط الإصلاح مقترنًا بالتَّوبة في عدَّةِ مواضعَ من القرآن الكريم:

- قال تعالى في وعيد من يكتم العلم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۝١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢).
- وقال في وعيد من يرتدُّ بعد إيمانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝٨٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ۝٨٨ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).
- وقال في شأن الزاني غير المحصَن: ﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(٤).

(١) تفسير ابن سعدي ص: (٢٢٠).

(٢) البقرة/ ١٥٩-١٦٠.

(٣) آل عمران/ ٨٧-٨٩.

(٤) النساء/ ١٦.

حيث كانت عقوبتُه في ابتداء الإسلام هي الأذى بالتَّوبيخ والتَّعيير، ثم نُسِخَ هذا الحكم بالجلد كما في سور النُّور[1].

- **وقال في وعيد المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[2].**
- **وقال في حدِّ السَّارق: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].**
- **وقال في حدِّ القاذف: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].**
- **وقال في شأن مَنْ وقع من المؤمنين في معصية في لحظة سفهٍ وغلبة هوًى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5].**

---

(١) النور/ ٢.

(٢) النساء/ ١٤٥-١٤٦.

(٣) المائدة/ ٣٨-٣٩.

(٤) النور/ ٤-٥.

(٥) الأنعام/ ٥٤.

- وقال في موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

❖ وتارة تأتي الإشارة إلى ذلك باشتراط الإيمان وعمل الصَّالحات بعد التَّوبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ۝٦٥ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ۝٦٦ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[٥].

فلا بدَّ من اقتران التَّوبة بالإيمان الخالص لله والعمل الصَّالح، المصدق لهذه التَّوبة، قال القرطبي: من تاب بلسانه ولم يحقِّق ذلك بفعله فليست تلك

(١) النحل/ ١١٩.

(٢) مريم/ ٥٩-٦٠.

(٣) طه/ ٨٢.

(٤) القصص/ ٦٥-٦٧.

(٥) الفرقان/ ٦٨-٧٠.

التَّوبة نافعةً، بل مَنْ تاب وعمل صالحًا تُحقَّق توبته بالأعمال الصَّالحة، فهو الذي تاب إلى الله متابًا، أي: تاب حقَّ التَّوبة، وهي النَّصوح(١).

❖ وتارة تأتي الإشارة إلى ذلك باشتراط إقام الصَّلاة وإيتاء الزكاة بعد التَّوبة.

وقد جاء هذا الشَّرط في حقِّ المشركين؛ لأن إقام الصَّلاة وإيتاء الزكاة أعظم شعائر الإيمان الظاهرة؛ وقد صحَّ عن النَّبي ﷺ أنه قال: «أمرت أن أقاتل النَّاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصَّلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقِّ الإسلام، وحسابهم على الله»(٢).

قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(٤).

---

(١) تفسير القرطبي ١٣/٨٥.

(٢) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلُّوا سبيلهم) برقم (٢٥) ص: (٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا. . .) برقم (١٢٥) ص: (٣٢).

(٣) التَّوبة/ ٥.

(٤) التَّوبة/ ١١.

الفصل الثَّالث: قبول الله تعالى لتوبة عباده

إن العبد المؤمن إذا اعترف بذنبه، وندم على ما فرط منه، وتاب إلى الله تعالى، فإن الله– عزَّ وجلَّ– وعده بقبول توبته، والتَّجاوز عنه، قال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[(١)]. ومن أسمائه سبحانه وتعالى: التَّواب.

المبحث الأول: معنى الاسم الكريم (التَّواب)

ورد الاسم الكريم (التَّواب) في أحد عشر موضعا من القرآن الكريم.

وقد جاء مقرونا بالاسم (الرحيم) في تسعة مواضع منها[(٢)]، وبالاسم (الحكيم) في موضع واحد[(٣)]، ومنفردًا في موضعٍ واحدٍ[(٤)].

وهو مبالغة من التَّائب، ومعناه كثير التَّوبة على عباده.

قال الزجاجي[(٥)]: جاء (توَّاب) على أبنية المبالغة؛ لقبوله توبة عباده،

---

(١) التَّوبة/ ١٠٤.

(٢) البقرة/ ٣٧، ٥٤، ١٢٨، ١٦٠، والنساء/ ١٦، ٦٤، والتَّوبة/ ١٠٤، ١١٨، والحجرات/ ١٢. قال ابن عثيمين في تفسيره ١/١٩٠: "لما اقترنا حصل من اجتماعهما صفة ثالثة؛ وهي: الجمع بين التَّوبة الَّتي بها زوال المكروه، والرحمة الَّتي بها حصول المطلوب".

(٣) النور/ ١٠. قال السمعاني في تفسيره –مبينًا معنى اقتران الاسمين الكريمين في هذا الموضع– ٣٣٥/٧: "إن الله عز وجل حكم بالتَّلاعن على الصورة الَّتي أمر بها، وأراد بذلك ستر هذه الفاحشة على عباده، وذلك حكمة منه، ففصلت الآية بـ ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ إثر بيان الحكم؛ جمعًا بين التَّوبة المرجوة من صاحب المعصية والحكمة في سترها على تلك الصورة".

(٤) النصر/ ٣.

(٥) هو عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، أبو القاسم النهاوندي، لزم الزجاج حتى برع في النحو، =

وتكرير الفعل منهم دفعةً بعد دفعة، وواحدًا بعد واحد على طول الزمان، وقبوله- عزَّ وجلَّ- لمن يشاء أن يقبل منه؛ فلذلك جاء على أبنية المبالغة، فالعبد يتوب إلى الله- عزَّ وجلَّ- ويقلع عن ذنوبه، والله يتوب عليه ويقبل توبته[1].

وقال في المقصد الأسنى[2]**: التَّوَّاب الذي يرجع إلى تيسير أسباب التَّوبة لعباده مرة بعد أخرى بما يُظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته، ويُطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذُّنوب، استشعروا الخوف بتخويفه، فرجعوا إلى التَّوبة، فرجع عليهم بالقبول**[3].

= وإله ينسب، توفي في طبريَّة سنة ٣٤٠هـ، ومن مؤلفاته: الكافي في النحو، والأمالي، واشتقاق الأسماء.

ينظر: تاريخ الإسلام ٧٣٨/٧، وبغية الوعاة ٧٧/٢.

(١) اشتقاق الأسماء للزجاجي ص: (٦٣).

(٢) كتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى لأبي حامد الغزالي (ت/٥٠٥هـ)، رتبه على ثلاثة فنون: الأول في السَّوابق والمقدمات، والثاني في المقاصد والغايات، والثالث في اللواحق والتَّكميلات، وقد اختصره الخطيب الوزيري (ت/٨٩١هـ) وسماه المنهل العذب في أسماء الرَّب. ينظر: كشف الظُّنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ١٨٠٥/٢، ومعجم المطبوعات العربيَّة والمعربة ليوسف سركيس ١٤١٥/٢.

(٣) المقصد الأسنى للغزالي ص: (١٣٩).

المبحث الثَّاني: أقسام توبة اللّه- تعالى- على عباده

توبة العبد إلى الله– تعالى– محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه – سبحانه – عليه بعدها، فتوبته بين توبتين من ربِّه سابقة ولاحقة.

قال ابن القيم[١] في نونيته[٢]:

وكـذلك التَّـواب مـن أوصـافه والتَّـواب مـن أوصـافه نوعـان

إذن بتوبـة عبـده وقبولهـا بعـد المتـاب بمنـة المنـان[٣]

المطلب الأول: توبة اللّه- تعالى- على العبد قبل التَّوبة:

أمَّا توبة الله– تعالى– على عبده قبل التَّوبة فهي إذنه له بالتَّوبة، وإلهامه إيَّاها، وتوفيقه إليها، وتحريك دواعيها في قلبه، وتهيئة أسبابها، وصرف موانعها، وهي المعنيَّة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٤].

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، أبو عبد الله الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزيَّة، لازم شيخ الإسلام ابن تيميَّة، وأخذ عنه علما جما، توفي سنة ٧٥١هـ، من مؤلفاته: زاد المعاد في هدي خير العباد، ومدارج السالكين، وبدائع الفوائد.

ينظر: الدرر الكامنة ١٣٧/٥، وبغية الوعاة ٦٢/١.

(٢) قصيدة نونيَّة تبلغ قرابة (٦٠٠٠) بيت، بين فيها ابن القيم– رحمه الله– عقيدة السلف الصالح، وردَّ على مخالفيها، ونقض حججهم وكشف شبهاتهم، سمَّاها الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية.

ينظر: كشف الظنون ١٣٦٩/٢، وأبجد العلوم للقنوجي ص: (٦٤٧).

(٣) النونيَّة ص: (٢٠٩).

(٤) التَّوبة/ ١١٨.

من قصة الثَّلاثة الذي تخلفوا عن غزوة تبوك[1].

فأخبر– سبحانه– أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي الَّتي جعلتهم تائبين، فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم.

فدلَّ على أنهم ما تابوا حتى تاب الله عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علته[2].

المطلب الثَّاني: توبة اللّه- تعالى- على العبد بعد التَّوبة

ثم إن الله– تعالى– إذا أذن للعبد بالتَّوبة ووفَّقه لها، ويسَّر له أسبابها، فتاب العبد من ذنبه، ورجع من معصيته توبة مستوفية شروطها، فإن الله– تعالى– يقبل توبته، بل يفرح بها[3].

ونصوص القرآن الكريم الدالة على هذا المعنى أكثر من أن تُحصى[4].

فقد أخبر الله– تعالى– في مطلع سورة غافر أنه سبحانه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾[5] والتَّوب في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرًا بمعنى التَّوبة،

---

(١) سيأتي خبرهم ص: (٤١)

(٢) مدارج السالكين ٣١٢/١، وفتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتَّوحيد والأخلاق المستنبطة من القرآن لابن سعدي ص: (٣٧).

(٣) ثبت ذلك في صحيح مسلم بعدة ألفاظ وطرق من حديث أبي هريرة، وأنس، وابن مسعود، والبراء بن عازب رضي الله عنهم.
انظر: صحيح مسلم، كتاب التَّوبة، باب في الحض على التَّوبة والفرح بها برقم (٦٩٥٣، ٦٩٥٥، ٦٩٥٧، ٦٩٥٨، ٦٩٥٩، ٦٩٦٠، ٦٩٦١) ص: (١١٨٩-١١٩١).

(٤) ولهذا فسوف أقتصر في هذا المطلب على النصوص الَّتي ورد فيها التَّصريح بقبول التَّوبة.

(٥) غافر/ ٣.

ويحتمل أن يكون جمع توبة، كتمر وتمرة، فيكون المعنى يقبل التَّوبات.

وتقديم ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ على ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ مع أنه مترتب عليه في الحصول، للاهتمام بتعجيل الإعلام به لمن استعد لتدارك أمره، أو ليُعلم أنه– تعالى– ربما يغفر من غير توبة.

وعُطفت صفة ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ على ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ بالواو، ولم تُفصَّل كما فُصلِّت الصِّفتان بعدها؛ إشارة إلى نكتة جليلة، وهي إفادة أن يجمع للمذنب التَّائب بين رحمتين، بين أن يقبل توبته، وأن يمحو عنه بها الذُّنوب الَّتي تاب منها، وندم على فعلها، فيصبح كأنه لم يفعلها.

وهذا فضل ومنة من الله، كأنه قال: جامع المغفرة والقبول.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله الموصوف بغفران الذَّنب وقبول التَّوب؛ لأن من جملة ما اشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات دعوة المذنبين إلى التَّوبة والإنابة والاستغفار والرجوع إلى الله تعالى.

و ﴿غَافِرِ﴾ و ﴿وَقَابِلِ﴾ لا يراد بهما المعنى، بل هما وصفان يفيدان معنى الدوام والاستمرار، كما يفيد ذلك استخدام الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾[1]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾[2].

وابتناء الإخبار في هاتين الآيتين على أسلوب الجملة الاسميَّة لإفادتهما ثبات حكمها ودوامه، وإيثار صيغة المضارع لإفادة تجدُّد مضمونه وتكرره،

(١) التَّوبة/ ١٠٤.

(٢) الشورى/ ٢٥.

ليعلموا أن ذلك وعدٌ لا يتخلف ولا يختلف[1].

وفعل ﴿يَقْبَلُ﴾ يتعدَّى بـ (مِن) كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾[2]، وإنما عدي بـ﴿عَنْ﴾ هنا لتضمين معنى العفو التَّجاوز عن الذنوب والمعاصي المتوب منها.

فحصلت في الجملتين ثلاث مبالغات:

الأولى: بناء الجملة على الاسميَّة.

والثَّانية: استخدام المضارع فيهما.

الثَّالثة: تعدية الفعل بـ (عن) دون (من) .

وتزيد الأولى المبالغة باستخدام ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ بعد لفظ الجلالة لإفادة تأكيد الخبر.

وتزيد الثَّانية المبالغة باستخدام الموصول لإفادة اتصاف الله– تعالى– بمضمون صلته، وأنها شأنٌ من شؤون الله تعالى، فهو ثابت له لا يتغيَّر ولا يختلف.

وفي إيثار التَّعبير بـ﴿عِبَادِهِ﴾ إيماء إلى أن الله رفيق بهم رحيم، فيقبل توبتهم، ويغفر زلتهم.

وقد صدرت الجملة في آية سورة التَّوبة بالاستفهام التَّقريري لقصد

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٢٠٢/٦، والكشاف ٣٢٨/٥، وتفسير القرطبي ٢٧٩/١٥، وتفسير النسفي ٤٦٩/٢، والبحر المحيط ٤٣٠/٧، والدر المصون ٢٨/٦، وروح المعاني ٢٩٦/١٢، وتفسير ابن سعدي ص: (٦٧٧)، والتَّحرير والتَّنوير ٧٩/٢٤.

(٢) التَّوبة/ ٥٤.

تهييجهم إلى التَّوبة وحثِّهم عليها، ولو تكرَّرت منهم المعصية؛ لأنه– سبحانه– لا يملُّ من التَّوبة على عباده حتى يملوا هم؛ ولهذا ختمها بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١].

ولما كانت التَّوبة من الأعمال العظيمة الَّتي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصِّدق، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيويَّة، وكان محلُّ ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم آية سورة الشُّورى بقوله: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾[٢].

(١) التَّوبة/ ١١٨.

(٢) التَّفسير الكبير للرازي ١٤٠/١٦، و ٥٩٧/٢٧، وتفسير البيضاوي ٨١/٥، والدُّر المصون ٥٠١/٣، وتفسير الخازن ٤٠٤/٢، وتفسير الجلالين مع الجمل ٣٠٧/٣، وروح المعاني ١٥/٦، وتفسير ابن سعدي ص: (٣٠٩ و ٧٠٤)، والتَّحرير والتَّنوير ٢٧/١١ و ٨٨/٢٥.

الفصل الرابع: نماذج من توبة الأنبياء والصَّالحين

إن الرجوع عن الذَّنب، والنَّدم عليه، والتَّوبة مباشرة بعد مقارفته هو منهج الأنبياء وهدي الصَّالحين، وقد قصَّ الله علينا في القرآن الكريم طرفًا من أخبارهم، وكيف كان هديهم في النُّزوع سريعًا من الذَّنب، والاستغفار منه، والنَّدم على ما فرط، وذلك لنترسم خطاهم، ونسير على نهجهم، وفي هذا الفصل ذكرٌ لنموذجين من هذه القصص.

المبحث الأول: نموذج من توبة الأنبياء (توبة آدم عليه السَّلام)

لما خلق الله آدم وفضله، وأتمَّ نعمته عليه بأن خلق منه زوجه ليسكن إليها ويستأنس بها، أمرهما بسكنى الجنة، والأكل منها حيث شاءا، وضمن لهما استمرار الطَّعام والشَّراب، والكسوة والماء، وعدم التَّعب والنَّصَب ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[1]. لكنَّ الله تعالى نهاهما عن نوع من أنواع الشَّجر ابتلاءً وامتحانًا؛ فم يزالا ممتثلين لأمر الله- تعالى- حتى وسوس إليهما الشَّيطان وزين لهما الأكل من الشَّجرة ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[2]، ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ

(١) طه/ ١١٨-١١٩.

(٢) طه/ ١٢٠.

ٱلْخَٰلِدِينَ ﴾[١]، وأقسم على ذلك ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[٢]، فاغترَّا بذلك، وغلبت الشَّهوة في تلك الحال على العقل، فلما أكلا من الشَّجرة انكشفت عورة كلٍّ واحد منهما، فشرعا يلزقان عليهما من ورق الجنة بعضه ببعض ليسترا به عوراتهما ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾[٣]، ثم ناداهما ربُّهما موبخًا معاتبًا وهما على تلك الحال: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[٤]، فلم اقترفتما ما نهيتكما عنه أطعمتما عدوكما؟.

فحينئذ منَّ عليهما بالتَّوبة، ووفقهما إليها؛ فاعترفا بالذنب، وسألا الله مغفرته ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[٥]. فغفر الله لهما خطيئتهما وتاب عليهما ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٦]، ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾[٧]، فكان من تبعات هذه الخطيئة أن أُخرِج آدم وزوجه من الجنة ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ

(١) الأعراف/ ٢٠.
(٢) الأعراف/ ٢١.
(٣) الأعراف/ ٢٢.
(٤) الأعراف/ ٢٢.
(٥) الأعراف/ ٢٣.
(٦) البقرة/ ٣٧.
(٧) طه/ ١٢٢.

كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾[1]، وأُهبطا إلى الأرض ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾[2]، **وأخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوها الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدَّار الَّتي هي الدَّار حقيقة، الَّتي هي دار المقامة**[3].

(١) الأعراف/ ٢٧.

(٢) البقرة/ ٣٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٢٣٨/١، ٣٩٧/٣، ٣٢١/٥، وتفسير ابن سعدي ص: (٣٢)، (٢٤٧)، (٤٦٣).

المبحث الثَّاني: نموذج من توبة الصَّالحين (توبة الثَّلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك)

جاء ذكر هؤلاء الثَّلاثة وخبر توبتهم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(١)].

وقد جاء تفسير هذه الآية وبيانها في الحديث الذي أخرجه الشَّيخان عن كعب بن مالك[(٢)] أنه قال: (لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك[(٣)]، غير أني كنت تخلَّفت في بدر[(٤)]، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها،

(١) التَّوبة/ ١١٨.

(٢) كعب بن مالك بن عمرو بن القين الأنصاري السلمي، أحد السبعين الذين شهدوا العقبة، آخى النبي ﷺ بينه وبين الزبير، توفي سنة ٥٠هـ، وله سبع وسبعون سنة.
ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ١٣٢٣/٢، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ٤٥٦/٥.

(٣) كانت هذه الغزوة في شهر رجب من السنة التَّاسعة للهجرة.
ينظر: السيرة النبويَّة لابن هشام ٥١٥/٢، والدرر في اختصار المغازي والسير ص: (٢٣٨).
وتبوك: كانت منهلا من أطراف الشام، وكانت من ديار قضاعة تحت سلطة الروم، وقد أصبحت اليوم مدينة من مدن شمال الحجاز الرئيسية، لها إمارة تعرف بإمارة تبوك، وهي تبعد عن المدينة شمالا (٧٧٨) كيلا.
ينظر: معجم البلدان (١٤/٢)، ومعجم المعالم الجغرافية (٥٩).

(٤) كانت هذه الغزوة في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة.
ينظر: السيرة النبويَّة لابن هشام ٦٠٦/١، والدُّرر في اختصار المغازي والسير ص: (١٠٢). =

إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش[1]، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة[2]، حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدرُ أذكرَ في النَّاس منها، كان من خبري: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه، في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفازًا وعدوًا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظنَّ أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثِّمار والظِّلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا،

= وبدر: كانت ماء لغفار، ثم ظهرت فيها عين جارية، فتكونت على العين قرية، تمر بها القوافل القادمة من الشام ومصر، وهي اليوم بلدة بأسفل وادي الصفراء، تبعد عن المدينة (١٥٥) كيلا، ولما اندثرت قامت بالقرب منها بلدة الرايس.

ينظر: معجم البلدان (٣٥٧/١)، ومعجم المعالم الجغرافية (٤١).

(١) قبيلة من كنانة، غلب عليهم اسم أبيهم، فقيل لهم قريش على ما ذهب إليه جمهور النسابين، وسمي أبيهم بذلك، (وهو قصي بن كلاب) لاجتماعهم عليه، وقيل: لاشتغاله بالتِّجارة.

ينظر: الأنساب للسمعاني ٣٩٩/١٠، ونهاية الأرب ص: (٣٩٨).

(٢) تمَّت هذه البيعة ليلة الثاني عشر من شهر ذي الحجة من السنة الثالثة عشرة للبعثة.

ينظر: السيرة النبويَّة لابن هشام ٤٣٨/١، والدُّرر في اختصار المغازي والسير ص: (٧٠).

فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالنَّاس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتني فعلتُ، فلم يقدر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في النَّاس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفتُ فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النِّفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضُّعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال: وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سَلِمة[(١)]: يا رسول الله، حبسه برداه، ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل[(٢)]: بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجَّه قافلًا حضرني همِّي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا، واستعنتُ على ذلك بكلِّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عنِّي الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدًا بشيء فيه كذب،

(١) بطن من الخزرج، ينسبون إلى سلمة بن سعد بن علي بن أسد بن سادرة بن تزيد بن جشم بن الخزرج.

ينظر: الأنساب ١٨٤/٧، ونهاية الأرب ص: (٢٩٣).

(٢) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، شهد المشاهد كلها، بعثه النبي ﷺ قاضيا إلى اليمن، توفي بالطاعون في الشام سنة ١٧هـ، وله ٣٤ سنة.

ينظر: الاستيعاب ١٤٠٢/٣، والإصابة ١٠٧/٦.

فأجمعت صدقه، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، – وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين–، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال» فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك، ألم تكن قد ابتعت ظهرك» . فقلت: بلى، إني والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلًا، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنِّي، ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أمَّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك» . فقمت، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فو الله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري[1]، وهلال بن أميَّة

(١) مرارة بن الربيع العمري الأنصاري الأوسي، من بني عمرو بن عوف، شهد بدرًا، وهو أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وتاب الله عليهم، ونزل القرآن في شأنهم. =

الواقفي[١]، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثَّلاثة من بين مَن تخلَّف عنه، فاجتنبنا النَّاس، وتغيروا لنا حتى تنكَّرت في نفسي الأرض فما هي الَّتي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأمَّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمَّا أنا، فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج فأشهد الصَّلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصَّلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السَّلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقه النَّظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التَّفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة النَّاس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة[٢]، – وهو ابن عمي وأحبُّ النَّاس إليَّ–، فسلمت عليه، فو الله ما رد علي السَّلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكتَ، فعدتُ له فنشدته

= ينظر: الاستيعاب ١٣٨٢/٣، والإصابة ٥٢/٦.

(١) هلال بن أميَّة بن عامر بن قيس الأنصاري الواقفي، شهد بدرًا وما بعدها، أحد الثلاثة الذين تيب عليهم، وفيه نزلت آية اللعان.

ينظر: الاستيعاب ١٥٤٢/٤، والإصابة ٤٢٨/٦.

(٢) أبو قتادة بن ربعي الأنصاري، اختُلف في اسمه، فقيل: الحارث، وقيل: النعمان، وقيل: عمرو، شهد أحدًا والمشاهد بعدها، كان يقال له: فارس رسول الله ﷺ، توفي بالمدينة سنة ٥٤هـ وله ٧٢ سنة.

ينظر: الاستيعاب ١٧٣١/٤، والإصابة ٢٧٢/٧.

فسكتَ، فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، قال: فبينا أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نبطي[1] من أنباط أهل الشَّام[2]، ممن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك، فطفق النَّاس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتابًا من ملك غسان[3]، فإذا فيه: أمَّا بعدُ، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحقْ بنا نواسِك، فقلتُ لما قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التَّنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فتكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة[4] هلال بن أميَّة رسول

(١) النبطي: الفلاح، اشتقاقًا من استنباط الماء واستخراجه.
ينظر: غريب الحديث لابن الجوزي ٣٨٧/٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٩/٥.

(٢) الشَّام: يراد بها كلٌّ من: سوريا، والأردن، ولبنان، وفلسطين، دخلها المسلمون في غزوة مؤتة، ثم فتحوا كل بلاد الشَّام في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
ينظر: معجم البلدان ٣١٢/٣، ومعجم المعالم الجغرافيَّة ص: (١٦٧).

(٣) غسان: قبيلة من الأزد، نزلت الشام، وسميت غسان بماء نزلوه.
ينظر: الأنساب ٤٢/١٠، ونهاية الأرب ص: (٣٨٨).
وملك غسان هذا قيل: هو جبلة بن الأيهم، وقيل: الحارث بن أبي بشر، وقيل: جند بن الأيهم.
ينظر: فتح الباري ١٢١/٨، وعمدة القارئ ٥٣/١٨.

(٤) هي: خولة بنت عاصم. =

الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله: إن هلال بن أميَّة شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك». قالتَّ: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليتُ صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال الَّتي ذكر الله، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبُت، سمعت صوتَ صارخٍ[(١)]، أوفى على جبل سلع[(٢)] بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررتُ ساجدًا، وعرفتُ أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب النَّاس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إليَّ رجل فرسًا[(٣)]، وسعى ساعٍ من أسلم[(١)]، فأوفى

= ينظر: فتح الباري ٣٠٩/١، وعمدة القارئ ٥٤/١٨.

(١) هو حمزة بن عمرو الأسلمي.

ينظر: فتح الباري ٣٠٩/١، وعمدة القارئ ٥٤/١٨.

(٢) جبل صغير أصبح يحيط به العمران من كل اتجاه، يقع غربي المسجد النبوي الشريف، امتداده من الشمال إلى الجنوب.

ينظر: معجم البلدان ٢٦٣/٣، ومعجم المعالم الجغرافيَّة ص: (١٦٠).

(٣) قيل: هو الزبير بن العوام. =

على الجبل، وكان الصَّوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرني، نزعت له ثوبَيَّ، فكسوته إيَّاهما، ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فيتلقاني النَّاس فوجًا فوجًا، يهنوني بالتَّوبة، يقولون: لتهنك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله النَّاس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله(٢) يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلمَّا سلَّمت على رسول الله ﷺ، قال: رسول الله ﷺ، وهو يبرق وجهه من السُّرور: «أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمُّك» ، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله» . وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنَّا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خيرٌ لك» . قلت: فإني أمسك سهمي الذي

= ينظر: فتح الباري ١٢٢/٨، وعمدة القارئ ٥٤/١٨.

(١) بطن من خزاعة القحطانيَّة، ينتسبون إلى أسلم بن قصي بن حارثة بن عمرو بن مزيقيا.
ينظر: الأنساب ص: (٢٣٨) ونهاية الأرب ص: (٣٩).

(٢) طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشي التَّيمي، أبو محمد المدني، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى، شهد أحدًا وما بعدها من المشاهد، قتل يوم الجمل سنة ٣٦هـ، وله ٦٤ سنة.
ينظر: الاستيعاب ٧٦٤/٢، والإصابة ٤٣٠/٣.

بخيبر[١]، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نجاني بالصِّدق، وإن من توبتي أن لا أحدِّث إلا صدقًا، ما بقيت. فو الله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبًا، وإنِّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٢] فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبته، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإنَّ الله قال للذين كذبوا– حين أنزل الوحي– شرَّ ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٣]، قال كعب: وكنَّا تخلَّفنا أيها الثَّلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيَّانا، وإرجاؤه أمرنا، عمَّن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه)[٤].

---

(١) كان فتح خيبر في المحرم من السنة السابعة للهجرة.

ينظر: سيرة ابن هشام ٣٢٨/٢، والدُّرر في اختصار المغازي والسير ص: (١٩٦).

(٢) التَّوبة/ ١١٧-١١٩.

(٣) التَّوبة ٩٥-٩٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك، برقم (٤٤١٨) ص: ٧٤٩، ومسلم في صحيحه، كتاب التَّوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك =

= وصاحبيه، برقم (٧٠١٦) ص: ١٢٠٠.

الفصل الخامس: وقت التوبة

إنّ قبول الله – تعالى– لتوبة عبده لا يحصل إلا إذا تاب العبد في وقت التَّوبة، لا وقت الاضطرار؛ وإلا فلن يقبل الله توبته.

فللتوبة وقت محدَّد لا تقبل التَّوبة بعده باعتبار عموم الخلق، ووقت لا تقبل بعده باعتبار كل إنسان بحسبه.

المبحث الأول: وقتها باعتبار كل إنسان بحسبه

باب التَّوبة مفتوح للعبد المذنب ما لم يعاين الموت والعذاب، وأمَّا بعد حضور الموت فلا يقبل الله من العاصين توبتهم، ولا من الكفار رجوعهم، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[(١)].

قال ابن سعدي: وذلك أن التَّوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار[(٢)].

ولهذا لم يقبل الله– تعالى– من فرعون توبته لما حاصرته الأمواج، وأيقن أنه لن ينجو: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(٣)]. قال القرطبي: فلم يقبل هذا القول منه لما أتى به بعد إغلاق باب التَّوبة[(٤)]. ثم قال سبحانه– مبينًا أن الإيمان في هذه

(١) النساء/ ١٨.

(٢) تفسير ابن سعدي ص: (١٣٧).

(٣) يونس/ ٩٠.

(٤) تفسير القرطبي ٢٥١/٧.

الحالة غير نافع له- ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1]. قال ابن سعدي: فلا ينفعك الإيمان، كما جرت عادة الله، أنَّ الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطراريَّة أنه لا ينفعهم إيمانُهم؛ لأن إيمانهم صار إيمانًا مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع، إنما هو الإيمان بالغيب[2].

وقد بيَّن- سبحانه- أن هذه إحدى سننه الكونيَّة الَّتي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[3].

قال ابن كثير: هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل؛ ولهذا جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»[4] أي: فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة، وعاين الملك، فلا توبة حينئذ؛ ولهذا قال: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[5].

---

(١) يونس/ ٩١.

(٢) تفسير ابن سعدي ص: (٣٢٩).

(٣) غافر/ ٨٤-٨٥.

(٤) أخرجه التِّرمذي في جامعه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب الدعوات، باب فضل التَّوبة والاستغفار، برقم (٣٥٣٧) ص: (٨٠٣)، وقال: هذا حديث حسن غريب، وحسنه الألباني.

(٥) تفسير ابن كثير ٧/١٦٠.

المبحث الثَّاني: وقتها باعتبار العموم

أمَّا نهاية التَّوبة على وجه العموم فهو طلوع الشَّمس من مغربها، يقول النَّبي الكريم ﷺ: «لا تقوم السَّاعة حتى تطلع الشَّمس من مغربها؛ فإذا طلعت من مغربها آمن النَّاس كلهم أجمعون، فيومئذ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾»[1].

(١) الأنعام/ ١٥٨، وأخرجه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب التَّفسير باب ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ برقم (٤٦٣٦) ص: (٧٩٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان برقم (٣٩٦) ص: (٧٨).

الفصل السَّادس: ثمار التوبة

من عظيم كرم الله عزَّ وجلَّ، وتمام لطفه بعباده أنه لما أمرهم بالتَّوبة النَّصوح؛ رتَّب على هذه التَّوبة عددًا من المنح والهبات، وعدهم بها- سبحانه- إنْ هم حققوا التَّوبة على وجهها الأتمِّ، وصورتها الأكمل.

فإذا تاب العبد المذنب من ذنبه، ورجع عن معصيته في وقت إمكان التَّوبة، واستوفت توبته شروطها، فإنه سيجني ثمار ذلك في العاجل والآجل، في الدُّنيا والآخرة، ومن هذه الثِّمار:

المبحث الأول: تكفير الذُّنوب

أول ثمرة يجنيها التَّائب من توبته هي محو الذَّنب الذي تاب منه حتى يصبح كأنه لم يعمله يقول تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1]. قال ابن سعدي: يمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التَّائب عنده كريمًا، كأنه ما عمل سوءًا قط، ويحبه ويوفقه لما يقربه إليه[2].

وفي الحديث: «التَّائب من الذَّنب كمن لا ذنبَ له»[3].

ويقول- سبحانه- في شأن التَّائبين المنيبين: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾[4].

---

(١) الشورى/ ٢٥.

(٢) تفسير ابن سعدي ص: (٧٠٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه من حديث عبد الله بن مسعود، كتاب الزهد، باب ذكر التَّوبة، برقم (٤٢٥٠) ص: (٧٠٤)، وحسنه الألباني.

(٤) الأحقاف/ ١٦.

قال ابن كثير: التَّائبون إلى الله المنيبون إليه، المستدركون ما فات بالتَّوبة والاستغفار هم الذين يتقبَّل عنهم أحسنَ ما عملوا، ويتجاوز عن سيئاتهم، فيغفر لهم الكثير من الزلل، ويتقبَّل منهم اليسير من العمل(١).

وهذا الوعد من الله– عزَّ وجلَّ– للتائبين بتكفير الذُّنوب ومحو السَّيئات متحقَّق لا محالة؛ حيث ختم– عزَّ وجلَّ– الآية بقوله: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾(٢).

قال ابن سعدي: أي هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين الذي لا يخلف الميعاد(٣).

ولما أمرَ– سبحانه– في سورة التَّحريم بالتَّوبة عقب ذلك بالوعد بتكفير الذنوب، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾(٤).

قال المفسرون ﴿عَسَىٰ﴾ وإن كان أصلُها للإطماع فهي من الله واجبة متحققة الوقوع(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٨١/٧.

(٢) الأحقاف/ ١٦.

(٣) تفسير ابن سعدي ص: (٧٢٦).

(٤) التَّحريم/ ٨.

(٥) تفسير السمعاني ٤٧٧/٥، وتفسير القرطبي ١٩١/١٨، وفتح القدير ٣١٥/٥.

المبحث الثَّاني: تبديل السَّيئات بالحسنات

ومن عظيم فضل الله وكرمه وجوده أن تثمر هذه التَّوبة تبديل السَّيئات بالحسنات، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

قال بعض المفسرين: يبدِّل عمله السَّيئات بعمل الصَّالحات فيحببها إليه وييسرها عليه، فيبدِّل بالشِّرك إخلاصًا، وبالفجور إحصانًا. . .

وقال بعضهم: إن تلك السَّيئات تنقلب بنفس التَّوبة النَّصوح حسنات؛ لأنه كلَّما تذكر ما مضى ندم واستغفر، فينقلب الذَّنب طاعة بهذا الاعتبار[2].

ويؤيد هذا التَّفسير حديث أبي ذر[3]: أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولًا الجنة، وآخر أهل النَّار خروجًا منها؛ رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتُعرض عليه صغار ذنوبه، فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، وكذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر؛ وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه، فيقال له: فإنَّ لك مكان كلِّ سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ها هنا». فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدتْ نواجذه[4].

---

(١) الفرقان/ ٧٠.

(٢) ينظر: النكت والعيون ٤/١٥٨، وزاد المسير ٦/١٠٧، وتفسير ابن كثير ٦/١٢٧.

(٣) أبو ذر الغفاري، جندب بن جنادة على الأصحِّ، اختُلف في اسمه واسم أبيه اختلافًا كثيرًا، من السابقين الأولين إلى الإسلام، قال فيه النبي ﷺ: "ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء، أصدق لهجة من أبي ذر" توفي بالربذة سنة ٣١هـ، ينظر: الاستيعاب ٤/١٦٥٢، والإصابة ٧/١٠٥.

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها برقم (٤٦٧) ص: (٩٩).

المبحث الثَّالث: الفلاح

ومن ثمار التَّوبة أيضًا الفلاح والفوز في الدُّنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١]. فجعل الله تعالى الفلاح متوقفًا على التَّوبة حاصلًا بحصولها وممتنعًا بامتناعها، وأكد هذا الأمر أيضًا بقوله: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾[٢]. وعسى من الله واجبة[٣] فهذا الثَّواب واقع للتائب بفضل الله ومنِّه لا محالة[٤].

المبحث الرابع: الحياة الطَّيبة

ومن ثمار التَّوبة العاجلة أيضًا الحياة الطَّيبة العامرة بالسَّعادة والطّمأنينة والسَّكينة والراحة والرضا، قال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٥]. أي: يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعم متتابعة، إلى وقت مقدر عند الله وهو الموت[٦].

---

(١) النور/ ٣١.

(٢) القصص/ ٦٧.

(٣) أخرج الطبري وابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس "كل (عسى) في القرآن فهي واجبة". أخرجه الطبري برقم (١٦٥٥٥) ١٦٧/١٤، وابن أبي حاتم برقم (١٠٠٦٠) ١٧٦٦/٦.

(٤) تفسير الطبري ٦٠٩/١٩، وتفسير القرطبي ٣١٦/١٣، وتفسير السعدي ص: (٥١٦)، و (٥٧٢)، وأضواء البيان ١٤٠/٦.

(٥) هود/ ٣.

(٦) تفسير القرطبي ٧/٩، وفتح القدير ٦١٢/٢، وتفسير القاسمي ٧٣/٦، وتفسير ابن سعدي ص: (٣٣٢)، وأضواء البيان ٧/٣.

المبحث الخامس: تسخير بركات السَّماء والأرض

من أسباب الحياة الطَّيبة نزول بركات السَّماء، وخروج بركات الأرض، وتسخيرها للتائب، يقول- عزَّ وجلَّ- على لسان هود- عليه السَّلام- في حثِّه قومَهُ على التَّوبة وبيان ثمارها العاجلة لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[1]. فمَن لازم التَّوبة وداوم عليها يسَّر الله عليه رزقه، وسهَّل له أمره، وحفظ شأنه وقوته[2].

المبحث السَّادس: محبة الله عزَّ وجلَّ

وأعظم ثمار التَّوبة حصول محبة الله- عزَّ وجلَّ- للتائب المنيب الذي كلُّما بدر منه ذنب اعترف به، وندم عليه، وسارع إلى التَّوبة والإنابة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3]. يحبهم- سبحانه- محبة حقيقيَّة على الوجه اللائق به عزَّ وجلَّ، ومحبة الله- عزَّ وجلَّ- للتائب مستمرة متجددة ما دام العبد ملازمًا للتوبة، متعاهدًا بنفسه بها على الدوام[4].

المبحث السَّابع: دخول الجنة

ومن ثمرات التَّوبة أيضًا دخول الجنة، حيث تأذن الله- سبحانه- بها لمن

---

(١) هود/ ٥٢.

(٢) تفسير القرطبي ٥٣/٩، وتفسير ابن كثير ٣٢٩/٤، والتَّحرير والتَّنوير ٩٧/١٢، وتفسير ابن سعدي ص: (٣٣٩).

(٣) البقرة/ ٢٢٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٥٨٨/١، وتفسير ابن سعدي ص: (٨٢)، وتفسير ابن عثيمين ٨٢/٣.

تاب وأناب قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[١].

وعسى من الله واجبة، وقد أكد هذا الأمر في آية أخرى فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ٦٠ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا﴾[٢].

فأكد– سبحانه– أن من جزائهم دخول الجنة والتَّنعم بنعيمها، وأن هذا الوعد منه– سبحانه– متحقِّق لا محالة لأنه– جلَّ وعلا– لا يخلف الميعاد، كما أكد هذا الوعد ووصفه بالوعد الصَّادق في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾[٣].

أي: وعدهم وعد الحق لا شكَّ فيه، أنه موفٍّ لهم بذلك[٤].

(١) التَّحريم/ ٨.

(٢) مريم/ ٦٠-٦١.

(٣) الأحقاف/ ١٦.

(٤) الهداية إلى بلوغ النهاية ٦٨٤٤/١١، وتفسير القرطبي ١٣٢/١١، وتفسير ابن كثير ٢٤٦/٥، وتفسير ابن سعدي ص: (٤٤٧)، وأضواء البيان ٢٥٣/٤.

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة الماتعة الشَّائقة في أفياء هذا الموضوع القرآني، يطيب لي أن ألخص ثماره اليانعة في الآتي:

- ❖ نظرًا لأهميَّة هذا الموضوع؛ فقد تعددت أساليب القرآن الكريم في مناقشته، وتنوعت طرق إيراده، فتارة تأتي الإشارة إليه في قصة تحكى لأجل الاعتبار بها، وتارة تكون الدعوة إليه بعبارة صريحة مباشرة، وتارة بأسلوب التَّرغيب وأخرى بأسلوب التَّرهيب.
- ❖ على المسلم أن يتعاهد نفسه بالتَّوبة من كلِّ ما اقترف في كلِّ وقت وحين؛ لأنه لا يخلو من مقارفة معصية، وإن سلم، فلن يخلو من تقصير في طاعة، فينبغي عليه المبادرة إلى التَّوبة دومًا قبل فوات الآوان.
- ❖ لا بدَّ للتائب من استيفاء شروط التَّوبة الَّتي نوّه إليها القرآن، وهي: الانتهاء عن الذنب، والنَّدم على ما مضى، والاستغفار منه، والعزم على عدم العود والإصلاح بعد التَّوبة، ولهذا وصف الله– عزَّ وجلَّ– التَّوبة المأمور بها بقوله: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾[1]
- ❖ لا بدَّ أن تكون التَّوبة في وقت الإمكان، وهو قبل معاينة الموت، أو طلوع الشَّمس من مغربها.
- ❖ أنَّ توبة الله على عباده على قسمين: توبة من الله قبل توبة العبد؛ بالتَّوفيق للتوبة وتهيئة أسبابها، وتوبة من الله بعد توبة العبد بقبولها والتَّجاوز عمَّا

(١) التَّحريم/ ٨.

بدر منه.

- ❖ ذكر القرآن قصص التَّائبين وما جزاهم الله به من الثَّواب الجزيل؛ لأجل الاعتبار والاتعاظ.
- ❖ تفنَّن القرآن في ذكر الثِّمار الَّتي يجنيها العبد التَّائب من توبته في العاجل والآجل، لحفز الهمم وتقوية العزائم على ملازمة التَّوبة في جميع الأوقات.

وأمَّا بشأن التَّوصيات:

- ❖ فيلاحَظ على بعض الأبحاث في التَّفسير الموضوعي عدم سلوك المنهج العلمي للتفسير الموضوعي الذي يعالج الموضوع من خلال نصوص القرآن فقط والذي يُظهر روح القرآن في مناقشة الموضوع، والسَّبب– فيما أحسب– هو نقص التَّدريب في مراحل الدِّراسَة على مثل هذا اللون من التَّفسير؛ لذلك أوصي أن يكون التَّطبيق العملي لهذا اللون متزامنًا مع الدِّراسَة النَّظريَّة له في مراحل البكالوريوس والدِّراسَات العليا، مع تخصيص جزءٍ من درجة المقرَّر على التَّطبيق، بهدف الدُّربة على هذا الأسلوب من التَّفسير، والتَّعود على ممارسته عمليًّا.

أسأل الله أن يوفقنا للطاعات، ويجنبنا المعاصي والسَّيئات، ويجعلنا من التَّوابين المنيبين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ثبت المصادر والمراجع

١- أبجد العلوم، لمحمد صديق خان القنوجي (ت١٣٠٧هـ) ، دار ابن حزم، الطَّبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

٢- إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السُّعود العمادي (ت٩٨٢هـ) دار إحياء التُّراث العربي، بيروت، الطَّبعة الرابعة ١٤١٤هـ.

٣- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البرِّ (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٤- اشتقاق أسماء الله، لأبي القاسم الزجاجي (ت٣٤٠هـ) ، تحقيق الحسين مبارك، مؤسسة الرسالة، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٦هـ.

٥- الإصابة في تمييز الصَّحابة، لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) ، تحقيق عادل عبد الموجود، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٦- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشّنقيطي (ت١٣٩٣هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٧- الأعلام، لخير الدين الزركلي (ت١٣٩٦هـ) ، دار العلم للملايين، الطَّبعة الخامسة عشر ٢٠٠٢م.

٨- الأنساب، للسمعاني (ت٥٦٢هـ) ، تحقيق عبد الرحمن المعلمي، مجلس دائرة المعارف العثمانيَّة، حيدر آباد، الطَّبعة الأولى ١٣٨٢هـ.

٩- أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل، لناصر الدين البيضاوي (ت٦٨٥هـ) ، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التَّراث العربي، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٠–البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ) ، تحقيق أحمد الجمل، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
١١–البداية والنِّهاية، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت٧٧٤هـ) ، دار الفكر، ١٤٠٧هـ.
١٢–البدر الطَّالع بمحاسن من بعد القرن السَّابع، للشوكاني (ت١٢٥٠هـ) ، دار المعرفة، بيروت، ط. د.
١٣–بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين الفيروزابادي (ت٨١٧هـ) ، تحقيق محمد النَّجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميَّة لجنة إحياء التَّراث الإسلامي، القاهرة ١٤١٦هـ.
١٤–بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنُّحاة، لجلال الدين السُّيوطي (ت٩١١هـ) ، المكتبة العصريَّة، لبنان، ط. د.
١٥–البلغة في تراجم أئمة النَّحو واللغة، لأبي طاهر محمد الفيروزابادي (ت٨١٧هـ) ، دار سعد للطباعة والتَّوزيع، الطَّبعة الأولى ١٤٢١هـ.
١٦–تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، لشمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ) ، تحقيق بشار معروف، دار الغرب الإسلامي، الطَّبعة الأولى ٢٠٠٣م.
١٧–التَّحرير والتَّنوير، لمحمد الطَّاهر بن عاشور (ت١٣٩٣هـ) ، دار سحنون للنشر والتَّوزيع، تونس، ط. د.
١٨–التَّعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني (ت٨١٦هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

١٩-تفسير الجلالين مع تفسير الجمل، لجلال الدين المحلي، وجلال الدين السُّيوطي (ت٨٦٤هـ و ٩١١هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٦هـ

٢٠-تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (ت٣٢٧هـ) ، تحقيق أسعد الطَّيب، مكتبة نزار الباز، مكة، الطَّبعة الثَّالثة ١٤١٩هـ.

٢١-تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير (ت٧٧٤هـ) ، تحقيق سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتَّوزيع، الطَّبعة الثَّانية ١٤٢٠هـ.

٢٢-تفسير القرآن العظيم، لأبي المظفر السَّمعاني (ت٤٨٩هـ) ، تحقيق ياسر غنيم، دار الوطن، الرياض، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٢٣-التَّفسير الكبير، لفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) ، دار إحياء التَّراث العربي، بيروت، الطَّبعة الثَّالثة ١٤٢٠هـ.

٢٤-تفسير سورتي الفاتحة والبقرة، لابن عثيمين (ت١٤٢١هـ) ، دار ابن الجوزي، الدمام، الطَّبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

٢٥-تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن سعدي (ت١٣٧٦هـ) ، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطَّبعة السَّادسة ١٤١٧هـ.

٢٦-جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطَّبري (ت٣١٠هـ) ، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الرياض، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٢٧-الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي (ت٦٧١هـ) ، تحقيق محمد الحفناوي، دار الحديث، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية ١٤١٦هـ.

٢٨-الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (ت٧٥٦هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٢٩–الـدُّرر الكامنـة فـي أعيـان المائـة الثَّامنـة، لابـن حجـر العسـقلاني (ت٨٥٢هـ) ، مجلس دائرة المعارف الهنديَّة، الطَّبعة الثَّانية ١٣٩٢هـ.
٣٠–الدُّرر في اختصار المغازي والسِّير، لابن عبد البرِّ (ت٤٦٣هـ) ، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٣هـ.
٣١–روح المعـاني فـي تفسـير القـرآن العظـيم والسَّـبع المثـاني، لمحمـود الآلوسـي (ت١٢٧٠هـ) ، دار الكتـب العلميَّـة، بيـروت، الطَّبعـة الأولـى ١٤٢٢هـ.
٣٢–روضة النَّاظرين عن مآثر علماء نجد وحوادث السِّنين، لمحمد القاضي، مطبعة الحلب، القاهرة، الطَّبعة الأولى ١٤٠٠هـ.
٣٣–زاد المسير في علـم التَّفسير، لأبي الفـرج ابـن الجـوزي (ت٥٩٧هـ) تحقيـق عبـد الـرزاق مهـدي، دار الكتـاب العربي، بيـروت، الطَّبعـة الأولـى ١٤٢٢هـ.
٣٤–السُّنن، لابن ماجه (٢٧٣هـ) ، مكتبة المعارف، الرياض، الطَّبعة الأولى.
٣٥–السُّـنن، للتِّرمـذي (ت٢٧٩هـ) ، مكتبـة المعـارف، الريـاض، الطَّبعـة الأولى.
٣٦–السِّـيرة النَّبويَّـة، لابـن هشـام (ت١٥٣هـ) ، تحقيـق مصـطفى السَّـقَّا، مؤسسة علوم القرآن ط. د.
٣٧–الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض بن موسى اليحصبي (ت/٥٤٤هـ) ، دار الفيحاء، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
٣٨–الصّـحاح، لإسـماعيل الجـوهري (ت٣٩٣هـ) ، دار الكتـب العلميَّـة،

بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
٣٩-الصَّحيح، للإمام البخاري (ت٢٥٦هـ) ، دار السَّلام، الرياض، الطَّبعة الثَّانية ١٤١٩هـ.
٤٠-الصَّحيح، للإمام مسلم بن الحجاج (ت٢٠٤هـ) ، دار السَّلام، الرياض، الطَّبعة الثَّانية ١٤٢١هـ.
٤١-طبقات المفسرين للأدنه وي (تق ١١هـ) ، تحقيق سليمان الخزي، مكتبة العلوم والحكم، الطَّبعة الأولى ١٤١٧هـ.
٤٢-طبقات المفسرين، لجلال الدين السُّيوطي (ت٩١١هـ) ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، الطَّبعة الأولى ١٣٦٩هـ.
٤٣-طبقات المفسرين، لمحمد بن علي الداودي (ت٩٤٥هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ط. د.
٤٤-علماء نجد خلال ستة قرون، لعبد الله البسام، مؤسسة الخدمة الطِّباعيَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٣٩٨هـ.
٤٥-عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني (ت٨٥٥هـ) ، دار إحياء التُّراث العربي، بيروت ط. د.
٤٦-غريب الحديث، لابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) ، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٤٧-فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) ، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ.
٤٨-فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد التَّوحيد الأخلاق المستنبطة

من القرآن، لابن سعدي (ت١٣٧٦هـ) ، دار ابن الجوزي، الدمام، الطَّبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٤٩–فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التَّفسير، للشوكاني (ت١٢٥٠هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٥٠–القاموس المحيط، لمجد الدين الفيروزابادي (ت٨١٧هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت ١٤٢٠هـ.

٥١–القصيدة النُّونيَّة، لابن قيم الجوزيَّة (٧٥١هـ) ، مكتبة ابن تيميَّة، القاهرة، الطَّبعة الثَّانية ١٤١٧هـ.

٥٢–الكشاف عن حقائق غوامض التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل لأبي القاسم الزمخشري (ت٥٣٨هـ) ، تحقيق عادل عبد الموجود، مكتبة العبيكان، الرياض، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٥٣–كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة (ت١٠٦٧هـ) ، مكتبة المثنى، بغداد ١٩٤١م.

٥٤–لباب التَّأويل في معاني التَّنزيل، للخازن البغدادي (ت٧٢٥هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٥٥–لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور (ت٧١١هـ) ، دار صادر، بيروت، الطَّبعة الثَّالثة ١٤١٤هـ.

٥٦–محاسن التَّأويل، لمحمد جمال الدين القاسمي (ت١٣٣٢هـ) ، تحقيق محمد باسل عيون السُّود، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٥٧-المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، للقاضي عبد الحق بن عطيَّة الأندلسي (ت٥٤٦هـ) ، تحقيق عبد السَّلام محمد، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٥٨-مدارج السَّالكين من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزيَّة (ت٧٥١هـ) ، تحقيق حمد البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطَّبعة الثَّالثة ١٤١٦هـ.

٥٩-مدارك التَّنزيل وحقائق التَّأويل، للنسفي (ت٧١٠هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٦٠-المستدرك على الصَّحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النَّيسابوري (ت٤٠٥هـ) ، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١١هـ.

٦١-المسند، للإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) ، تحقيق أحمد شاكر، دار الحديث القاهرة، الطَّبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٦٢-معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (ت٣١١هـ) ، عالم الكتب، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٦٣-معاني القرآن، لأبي جعفر النَّحاس (ت٣٣٨هـ) ، تحقيق محمد الصَّابوني، مركز إحياء التُّراث الإسلامي، مكة، الطَّبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٦٤-معجم البلدان، لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) ، دار صادر، بيروت، الطَّبعة الثَّانية ١٩٩٥م.

٦٥-معجم الفروق اللغويَّة، لأبي هلال الحسن العسكري (ت٣٩٥هـ) ،

مؤسسة النَّشر الإسلامي، الطَّبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٦٦–معجم المطبوعات العربيَّة والمعربة، ليوسف سركيس (ت١٣٥١هـ) ، مطبعة سركيس، مصر، ١٣٤٦هـ.

٦٧–معجم المعالم الجغرافيَّة في السِّيرة النَّبويَّة، لعاتق البلادي (ت١٤٣١هـ) دار مكة، مكة، الطَّبعة الأولى ١٤٠٢هـ.

٦٨–معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، للراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٦٩–معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين ابن فارس (ت٣٩٥هـ) ، دار الكتب العلميَّة، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٧٠–المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، لأبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) ، تحقيق بسام الجابي، الجفان والجابي، قبرص، الطَّبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٧١–موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، إشراف د. صالح بن حميد، دار الوسيلة، جدة، الطَّبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٧٢–موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، لمحمد بن علي التَّهانوي (ت١١٥٨هـ) ، تحقيق علي دحروج، مكتبة لبنان، بيروت، الطَّبعة الأولى ١٩٩٦م.

٧٣–نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، لأبي العباس القلقشندي (ت٨٢١هـ) ، دار الكتّاب اللبنانيين، بيروت، الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٠هـ.

٧٤–النِّهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (ت٦٠٦هـ) ، تحقيق

طاهر النزاوي، المكتبة العلميَّة، بيروت ١٣٩٩هـ.

٧٥-الهداية إلى بلوغ النِّهاية، لمكي بن أبي طالب (ت٤٣٧هـ) ، تحقيق مجموعة من الباحثين في جامعة الشَّارقة بإشراف الشَّاهد البوشيخي.

فهرس الموضوعات

المقدمة ..... – ٣٦٧ –

التَّمهيد: ..... – ٣٧٦ –

المبحث الأول: تعريف التَّوبة: ..... – ٣٧٦ –

المبحث الثَّاني: إطلاقات التَّوبة في القرآن الكريم: ..... – ٣٧٩ –

المبحث الثَّالث: الفرق بين التَّوبة والإنابة: ..... – ٣٧٩ –

الفصل الأول: الأمر بالتَّوبة ..... – ٣٨٠ –

المبحث الأول: الأمر بالتَّوبة النَّصوح: ..... – ٣٨٠ –

المبحث الثَّاني: ضرورة المبادرة إلى التَّوبة وملازمتها: ..... – ٣٨٢ –

المبحث الثَّالث: الإنكارُ على من لم يتب وتهديدُه: ..... – ٣٨٥ –

المبحث الرابع: نماذج دعوة الأنبياء أقوامهم إلى التَّوبة: ..... – ٣٨٧ –

المطلب الأول: دعوة نبي الله هود– عليه السَّلام– قومه إلى التَّوبة: ..... – ٣٨٧ –

المطلب الثَّاني: دعوة نبي الله صالح– عليه السَّلام– قومه إلى التَّوبة: ..... – ٣٨٨ –

المطلب الثَّالث: دعوة نبي الله شعيب قومه إلى التَّوبة: ..... – ٣٩٠ –

الفصل الثَّاني: شروط التَّوبة ..... – ٣٩١ –

المبحث الأول: الإخلاص لله تعالى ..... – ٣٩١ –

المبحث الثاني: الانتهاء عن الذَّنب: ..... – ٣٩٢ –

المبحث الثَّالث: الاستغفار من الذنب: ..... – ٣٩٥ –

المبحث الرابع: الإصلاح بعد التَّوبة: ..... – ٣٩٧ –

الفصل الثَّالث: قبول الله تعالى لتوبة عباده ..... – ٤٠١ –

المبحث الأول: معنى الاسم الكريم (التَّواب).....– ٤٠١ –

المبحث الثَّاني: أقسام توبة الله– تعالى– على عباده .....– ٤٠٣ –

المطلب الأول: توبة الله– تعالى– على العبد قبل التَّوبة: .....– ٤٠٣ –

المطلب الثَّاني: توبة الله– تعالى– على العبد بعد التَّوبة.....– ٤٠٤ –

الفصل الرابع: نماذج من توبة الأنبياء والصَّالحين .....– ٤٠٨ –

المبحث الأول: نموذج من توبة الأنبياء (توبة آدم عليه السَّلام).....– ٤٠٨ –

المبحث الثَّاني: نموذج من توبة الصَّالحين (توبة الثَّلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك) .....– ٤١١ –

الفصل الخامس: وقت التوبة .....– ٤٢١ –

المبحث الأول: وقتها باعتبار كل إنسان بحسبه .....– ٤٢١ –

المبحث الثَّاني: وقتها باعتبار العموم .....– ٤٢٣ –

الفصل السَّادس: ثمار التوبة .....– ٤٢٤ –

المبحث الأول: تكفير الذُّنوب.....– ٤٢٤ –

المبحث الثَّاني: تبديل السَّيئات بالحسنات .....– ٤٢٦ –

المبحث الثَّالث: الفلاح.....– ٤٢٧ –

المبحث الرابع: الحياة الطَّيبة.....– ٤٢٧ –

المبحث الخامس: تسخير بركات السَّماء والأرض .....– ٤٢٨ –

المبحث السَّادس: محبة الله عزَّ وجلَّ .....– ٤٢٨ –

المبحث السَّابع: دخول الجنة .....– ٤٢٨ –

الخاتمة.....– ٤٣٠ –

ثبت المصادر والمراجع .....– ٤٣٢ –

فهرس الموضوعات .....– ٤٤١ –